



حين تغامر سوريا... بالديموقراطية

أهو السقوط المدوي لنظام البعث في العراق بما كشفه من جرائم لصدام حسين تتقه فداحتها سجلات كل أنداده؟ ام هو توهم البعث الآخر انه لا يزال يستطيع التستر بتشاطره في اللعبة الاقليمية للايحاء أن لا شيء تغير؟ ام هو، على العكس، حجم الانقلاب الحاصل في الجغرافيا السياسية العربية بما يستدعيه من طي لصفحة البعث؟ اياً يكن السبب، كان لافتاً ان تمرّ الذكرى الثالثة لرحيل حافظ الاسد من دون كبير ضجة في سوريا وفي لبنان معاً. حتى وارثه في رئاسة الجمهورية العربية السورية وفي القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي نسي الاشارة الى هذه الذكرى في المقابلة الطويلة التي بثتها قناة "العربية"، مع العلم ان ذكرى موت الاب هي ايضاً ذكرى بداية عهد الابن. ولم يعرف المشاهد اذا كان مرد هذا السكوت بقاء طيف حافظ الاسد مهيمناً ام ابتعاده عن واقع السياسة السورية.

والحال انه، في غياب اي اشارة واضحة الى تلك الحادثة، اوحى الحديث التلفزيوني للرئيس بشار الاسد بالشيء ونقبضه. فبينما كان اختيار المفردات يعلن ان حافظ الاسد لا يزال يدير السياسة السورية، راحت المحاججة بما كشفته من رغبة في الحد من الخسائر امام المعطى الاميركي الجديد، الاستراتيجية والايديولوجي، تسرّ بان حافظ الاسد بات من الماضي. وقد جاءت بعض التحليلات لتؤكد هذا الانطباع وتفيد أن دمشق صارت تفتقر الى المهارات التكتيكية التي عرف بها الاب، وان يكن من الظلم محاكمة النظام الحالي دوماً في ضوء ما حفظته الذاكرة من هذه المهارات، اذ ان الجديد الاميركي ليس معهوداً في مدرسة حافظ الاسد.

يبقى انه، مع اخذ العلم بان سوريا تهيئ لانسحاب قواتها الى داخل حدودها، والاشارة اليتيمة الى ان التغيير لا يمكن ان يقتصر على الاشخاص، كان اداء الرئيس بشار الاسد يبعث على الاحباط. صحيح ان الاسد لم يساعده "غياب" محاوره الذي بدا كأنه نسي ملفه في الفندق فلم يطرح اياً من الاسئلة الاساسية لا عن مستقبل البعث ودولة المخابرات، ولا عن زج محاولة الاصلاح الاولى في المعتقل الى جانب رياض سيف وعارف دليلة ورفاقهما، ولا عن ديمومة جماليات الاصنام والصور العملاقة في دمشق بعد تهافتها في بغداد. ولم يكن وارداً في ذهن الرئيس ان يستبق الاسئلة بنفسه. فما نعرفه عن السياسة الاعلامية السورية يدفع الى الاعتقاد ان "خفر" الصحافي جزء من شروط المقابلة.

اذاً، لا جديد في سوريا؟ بلى، لكنه لا يأتي على لسان مسؤول، بل بقلم احد ابرز المثقفين السوريين. انه "الاختيار الديموقراطي في سوريا"، الكتاب الاخير لبرهان غليون. المؤلف ليس مقيماً في سوريا، هذا صحيح، لكنه عاد يتردد عليها منذ بضع سنوات بعد نحو عقدين من المنفى، والكتاب في اي حال صادر عن دار "بترا" السورية وعنوانها في دمشق. صحيح ان المعلومات الآتية من هناك تقول ان الكتاب غير متوافر في المكتبات السورية، لكن الرئيس بشار الاسد لن يجد صعوبة على الارجح في الاستحصال على نسخة منه.



ولعله ان فعل سيجد فيه ما يخاطب اولاً هوايته في المحاجبة، مسنودة هنا بثقافة سياسية صلبة، وثانياً سبباً لائقاً لتنظيم نهاية مرحلة يصفها غليون بـ"مذبحة السياسة" واطلاق التحول الديمقراطي السلمي والتدريجي الذي يعيد الحيوية الى مجتمعه ويتيح المصالحة الوطنية الفاعلة. "التحول الديمقراطي في سوريا" كتب قبل الحرب الاميركية في العراق. والاهم ان كاتبه لم ينتظر ان تصبح الديمقراطية العربية مطلباً اميركياً. فعندما اصدر "بيان من اجل الديمقراطية" عام ١٩٧٧، كانت الولايات المتحدة مشغولة في غض الطرف عن السياسة التوسعية والقمعية للحكم السوري. وكان برهان غليون ايضاً من الاعضاء المؤسسين للمنظمة العربية لحقوق الانسان التي ينسب معظم الناس انها جاءت كردة فعل على اجتياح اسرائيل للبنان عام ١٩٨٢ وهو مذكور في معظم وقته بين التأليف في باريس والمشاركة في ندوات عربية هاجسها النهوض والديموقراطية. ولعل اجمل ما في الكتاب نجاح غليون في نقل هذه التجربة الثقافية والتجريبية التي راكمها في اوربا وحواضر عربية مختلفة، ووضعها في تصرف المعارضة السورية، بواسطة نَفَس تربوي يجوز وصفه بالتنويري والنهضوي.

ورغم ان الكتاب، الذي جاء على شكل ردود على اسئلة الناشر لؤي حسين، يفتقر الى وصف شامل لاحوال سوريا (ولبنان معها)، الا ان ذلك لا يقلل من شجاعة الكاتب، الفكرية والسياسية على حد سواء. الشجاعة الفكرية تتجلى في قبوله الخوض في مسألة شائكة في العالم كله، وليس فقط في سوريا، هي مسألة الاشتراكية. وهو اذ ينتقد نقداً مبرحاً تجارب الاشتراكية الواقعة، يغرف من النقاش الدائر في الاوساط الاشتراكية الديمقراطية في اوربا وفي صفوف حركة مناهضة العولمة النيوليبرالية، ولا يتردد في اعلان انحيازه الى اليسار الديمقراطي، داعياً الى استعادة المعنى الانساني والتغيير الاصلي لمفهوم اليسار.

وفي ذلك، يرد غليون على اتهام كثر سماعه خلال "ربيع دمشق" وهو ان معظم المثقفين المعارضين ينهلون من المشارب نفسها التي غدت حكم البعث. والاهم من ذلك انه ينجح في توصيف الوضع السوري الرسمي بين يمين محافظ متطرف ويمين معتدل. اليمين المتطرف هو الذي يمسك مقاليد الحكم ويحول دون اي تغيير. اما اليمين المعتدل، فهو في تعريفه ممثل بقيادات من الصف الثاني تريد الاصلاح الاقتصادي من دون السياسي، تأميناً لمكان لها في تقاسم الغنائم. بيد ان مقاربتة للاشتراكية، التي تبدو للوهلة الاولى في غير محلها قبل ان يتذكر القارئ كم ان لغة الاشتراكية لا تزال حاضرة في سوريا، لا تعني عند غليون ان الاختيار الديمقراطي حكر على مثقفي اليسار دون غيرهم.

اما الشجاعة السياسية، فهي لا تكمن فقط في التوصيف القاسي لـ"الاجتياح الديكتاتوري"، بل ايضاً وخصوصاً في اعتراف الكاتب بما قد يعترض تجربة الديمقراطية في سوريا، سواء لاسباب طائفية او اسلامية او بسبب التدهور الاقتصادي. بل انه يذهب الى ان "لا شيء يضمن ان لا يعود البعث الى السلطة (تذكيراً، كُتبت الكتاب قبل العراق) اذا خسرت القوى الديمقراطية المعركة ولم تعرف كيف تقود الصراع من اجل الديمقراطية". الا ان اياً من هذه الاخطار لا يثنى غليون عن اولويته، وهي بناء الديمقراطية.

واذ يقر ان "كل نظام ديموقراطي هو مغامرة تاريخية حقيقية"، يسارع الى التأكيد: "لا تستطيع اي قوة سياسية ان تُشرط دخولها في حلبة التنافس السياسي، خاصة عندما تضع نفسها كجبهة خلاص من الديكتاتورية، بضمانات من اي نوع". اما الخلاص من الديكتاتورية، فيمر بانجاز عقد اجتماعي تعبر عنه انتخابات حرة وبترجمه دستور ديموقراطي. ولا خيار آخر الا الفوضى او الهيمنة الاجنبية. وانصاف الحلول لا تجدي، يضيف غليون الذي يحاذر تهوين الامور على السلطة من اجل استرضائها او تبسيط مهمة المعارضة. على العكس، فانه يذهب الى ان قبول المعارضة بتقاسم



السلطة قبل اي انتخابات، سيشكل تعدياً على سيادة الشعب وتعريضاً للهدف الملح. ذلك "ان المضمون العميق للبرنامج الديموقراطي في سوريا" هو "وضع حد للنظام الشمولي" ليس الا، بما يعنيه من الغاء لـ"نظام الوصاية الابوية او السياسية او الحزبية على المجتمع" وبناء لـ"دولة مواطنين لا عزبة اقطاعية، يتحكم فيها وبمصير سكانها اسياذ متوجون ومخلدون لا يسألون عما يفعلون، تدعمهم ميليشيات لا ترمي الطاعة لغيرهم ولا تخضع هي نفسها لقانون غير ارادتهم واهوائهم".

الصورة قائمة ولا يخفف منها شيء. فبخلاف ما قد يجده مواطنون عرب من خارج الشام وبعض اللبنانيين المأخوذين بهاجس التصدي، فان سياسة سوريا الاقليمية لا تمنح النظام ظروفاً تخفيفية، فلا يغيب عن غليون ان "الاستخدام الشعاراتي المكرر للمسألة الوطنية" هو ايضاً مرفوض، ولا ان الصراع مع اسرائيل يتطلب تماماً عكس ما تفعله السلطة، اي الانفتاح على المجتمع والتسلح بتماسكه. الا ان الحكام السوريين فضلوا استغلال الانتماء العروبي القوي لمواطنيهم "من اجل اخضاع السوريين، واحياناً غيرهم من العرب (والمقصود طبعاً اللبنانيون والفلسطينيون) لأشكال من النظم وانماط من الحكم وسياسات ليس لها علاقة على الاطلاق بالقومية العربية او بالعروبة". ان هذا التّمظهر الخارجي كان سمة عهد حافظ الاسد. وهو يبدو الآن جزءاً من النواة الصلبة لتركته، وهو جزء يبدو واضحاً ان ابنه ووارثه يتردد في التخلي عنه، بدليل مغامرته الاخيرة في العراق ولهجته التي لم تتغير في مقابلته التلفزيونية، هذه المغامرة وتلك اللهجة اللتان يبدو انهما لا تزالان تثيران حفيظة الادارة الاميركية.

ما دامت السياسة السورية قد اختبرت المغامرة، وان في غير محلها، أليس اجدى ان تجرب مغامرة اخرى، هي التي يدعو اليها برهان غليون من اجل مصالحة سوريا مع نفسها؟

سمير قصير



Id-Reference	03-Pr-000691	
Media	(Support)	HC
Title		حين تغامر سوريا... بالديموقراطية
Subtitle		
Section		
Language		عربي
Source		النهار
Page		
Date		٢٠٠٣/٦/١٣ 13/6/2003
Author		سمير قصير
Co-Author		
Keywords		
	Persons	لؤي.حسين - صدام.حسين - حافظ.اسد - بشار.اسد - رياض.سيف - عارف.دليلة - برهان.غليون - لؤي.حسين
	Locations	عراق - سوريا - لبنان - ولايات.متحدة - اسرائيل - اوروبا - دمشق - بغداد
	Dates	١٩٨٢ - ١٩٧٧
	Themes	عراق - سوريا - لبنان - نظام.بعثي - حزب.بعث.عراقي - صدام.حسين - ديموقراطية.سورية - اسرائيل - اشتراكية - حزب.بعث.سوري - سياسة.عربية - يسار.ديموقراطي - نظام.شمولي - سوريا.نظام - انسحاب.قوات.سورية - حافظ.اسد - بشار.اسد - قناة.عربية - سياسة.سورية - مخابرات.سورية - قبل.حرب.أميركية.عراق - حكم.سوري - برهان.غليون - اجتياح.اسرائيل.١٩٨٢ - معارضة.سورية - تجربة.اشتراكية - ربيع.دمشق - وصاية.سورية - قومية.عربية.عروبة -
Subject		